# مسيرة ترجمة وحياة مع الإيطالية

**د. حسين محمود**

بعد نحو 45 عاما من العمل تركزت معظمها في الكتابة، الصحفية والأكاديمية، فكرت في هذا اللقاء الجميل الذي يجمعني مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة لكي أعيد تنظيم مسيرتي مع اللغة والكتابة والترجمة. وفكرت في العمل الكبير – حجما- الذي قمت به، وكان معظمه استهلاكيا، مكتوبا لغرض عملي أو علمي، سددت به خانات إجبارية في حياتي، فكرت أن أعيد تنظيم هذه الكتابات – في كتاب واحد أتمنى أن أنتهي منه قريبا - عسى أن أجد فيها شيئا يربط فيما بينها، أو يربطني بها. كان هدف الأساسي هو الاستغناء عن كتابة سيرتي الذاتية والاستعاضة عنها بكتاباتي الذاتية، حتى وإن كانت مرفوضة ممن قدمت إليه للنشر أو الترقية أو ما شابه، أو ضعيفة بحكم ردود الأفعال السلبية عليها، أو ركيكة حسب تعبير رفاق الطريق الذين يقارنون ما كتبت بما قرءوا من درر. وإلا فلماذا لم يصلني أي شيء يفيد بحجم تأثير ما كتبت على من قرأ؟ صحيح أنه ربما أثرت في أفراد قلائل قرءوا هذه المقالات بالصدفة التي أملتها توافر الميديا الوقتية التي نشرت فيها، ولكنني أردت من تجميعها وتصنيفها ونشرها أن تكون قراءتها عمدا، قراءة موجهة، وأتمنى أن يستفيد منها من يريد، وسأكون في منتهى السعادة أن ينقل منها من ينقل، حتى دون ذكر المرجع، فلست من المؤمنين بحقوق المؤلف، ولأنني كنت من أكثر المستفيدين بحقوق القارئ الذي يتشكل وعيه وإنتاجه وإبداعه من نتاج غيره دون أية مراعاة لأكذوبة حق المؤلف.

ولا بد أن أقدم لقارئ هذه الصفحات اعتذارا مبدئيا عن حالة من الكسل الفكري أصابني في معظم كتاباتي، مرجعها إلى عملي مترجما من اللغات الإيطالية والإنجليزية والفرنسية طوال مسيرتي المهنية، ذلك أن عمل المترجم يعوده على أن يعيش على أفكار الآخرين، وخصوصا تلك التي تعجبه فيبادر إلى ترجمتها، وهذا التعود، رغم أنه يفتح الآفاق إلى أقصى اتساع لها، إلا أنه أيضا يصنع شبكة رقيقة، تشبه شباك العنكبوت، على الأفكار الخاصة الأصيلة، فلا يعود ممكنا التمييز بين ما هو من بنات الأفكار، وما هو متأثر بأفكار الغير، تأثرا يصل إلى حد التماهي.

والاعتذار أقدمه أيضا للترجمة نفسها، التي أسأت الظن بها. فقد ظللت سنين طويلة أنكر أنني مجرد مترجم، وأعتز أكثر بأنني كاتب وصحفي، لي قلم وأسلوب، وقد غذى هذا الظن عندي ردود أفعال إيجابية من رؤساء ومديرين عملت معهم وكانوا يحبون ما أكتب ويمتدحونه. ومع تقدم السن، وإدراكي لوظيفة الترجمة، وأنها مفتاح نهوض أي شعب، أدركت أيضا سمو هذه الوظيفة، ومدى ما يقدمه المترجم من تضحيات، ليس فقط من وقته وجهده، ولكن أيضا من فكره وأصالته الإبداعية، لكي يفيد غيره. أستطيع أن أفخر الآن بأنني مترجم.

وليس معنى هذا أنني أستنكر الوظائف الأخرى التي قمت بها، بل على العكس أفخر بمزاوجتها بنشاط الترجمة. والحقيقة أن وظائفي كلها كان تصب في مصلحة بعضها البعض – مع اعتذاري بالطبع هذه المرة لأنني استخدمت تعبير الصب في المصلحة المستهجن.

ولابد من الإشارة هنا إلى أساتذتي الذين كان لهم الفضل في تعليمي وتعلمي، وعلى رأسهم الأستاذ الدكتور سلامة محمد سليمان، رحمه الله، وكان أستاذا للأدب الإيطالي، وترجم معظم مسرحيات إدواردو دي فيليبو، وترجم القصة والشعر أيضا، وكان قريبا مني، يرى ترجماتي ويريني ترجماته، ومنه تعلمت التذوق اللغوي، فمنهجه في الترجمة كان قائما على الاستساغة، فليست هناك جملة يضعها على الورق قبل أن يقرأها بصوت عال، ويقرأها على تلاميذه في مرحلتي الماجيستير والدكتوراه وينظر إلى رد فعلهم. ومن ينظر إلى مسودات ترجماته يجد أمامه خريطة لغوية كاملة عليها كل الاحتمالات والاختيارات.

وثاني الأساتذة كان الكاتب الكبير أنيس منصور رئيس تحرير أول مجلة عملت بها، مجلة أكتوبر، فقد كان يوفر لنا جميع المجلات الإيطالية يوم صدورها، بواسطة مكتبة كان اسمهما منجوتسي، ومكانها في شارع 26 يوليو إلى جوار سينما ريفولي، ولكن السيدة منجوتسي صاحبة المكتبة أغلقتها وعادت إلى وطنها بعد طول إقامة في مصر. وكان الأستاذ – هكذا كنا نناديه أو نكتب إليه وكنا نسميه أيضا "الكاتب الكبير" – يقرأ هذه المجلات أولا، وبقلمه يضع علامات على الموضوعات والأخبار والصور التي يمكن أن نترجمها ونستفيد بها، ثم كان يقرأ ما نكتب وأحيانا يعيد كتابته، ونحن – كمحررين وراءه نتعلم منه ونكتسب منه أسلوبه السهل الممتنع.

وثالث الأساتذة هو الدكتور صلاح فضل. وبيني وبين صلاح فضل مشترك عميق. بيننا نظرية نقدية في الرواية كان من أوائل من قدموها للنقاد العرب، وبيني بينه دروس الأدب المقارن التي رأينا فيها توجيها للمجهود الفكري الغربي الذي نبذله لصالح الثقافة العربية، رغم تبحرنا في دراسات الآداب الغربية، فهو من كبار دارسي الأدب الإسباني، وقريبا منه تخصصي في الأدب الإيطالي، وأشترك معه أيضا في دانتي اليجييري، الذي درسه متابعا وناقدا لآراء المستعربين الإسبان، وهم من أهم من درس حركة انتقال المصادر العربية إلى القارة الأوروبية عبر الأندلس، ومن خلال مدرسة طليطلة التي نقلت إلى اللاتينية كما كبيرا من الأعمال العربية .
والترجمة مشترك آخر برع فيه الدكتور صلاح فضل وإن لم يشتهر به، ومعرفته باللغة الإسبانية وفرت له مصادر لم يكن يستطيع أن يتعرف لولا هذه المعرفة اللغوية، وإقامته في إسبانيا دارسا للدكتوراه ثم مستشارا ثقافيا، ونشاطه الدائم في البلاد الناطقة بالإسبانية. ويكفي أن نلقى نظرة على ترجماته لكي نستشف منها انتقائيته المحكومة بفلسفته الجمالية، فقد ترجم من المسرح الإسباني « الحياة حلم»، لكالديرون دي لاباركا، و«نجمة أشبيلية» للوب دي فيجا، و«القصة المزدوجة للدكتور بالمى»، و «حلم العقل: تاريخ الفلسفة من عصر اليونان إلى عصر النهضة» و: «أسطورة دون كيشوت» و«وصول الآلهة» وكلها أعمال الكاتب الشهير أنطونيو بويرو باييخو.
كل هذه المشتركات أنتجت في نهاية الأمر مشاركة فعالة للدكتور صلاح في مجلس كلية اللغات والترجمة التي أعمل عميدا لها، ولثلاث دورات متتالية، كان يحضر الاجتماعات ويشارك في النقاشات ويصل بنا ومعنا إلى الآراء العلمية السديدة، ولم يمنعه من الحضور إلا جائحة كورونا. حضوره معنا كان درسا، وتعلمنا منه أن يكون للمثقف رؤية وموقف، وأن يكون للمترجم اختيارات تفيد مجتمعه وتثري المعارف العامة للقراء.

هذا عن حاملي شعلة نور العلم والثقافة في مسيرتي المهنية، وتبقى اللغة الإيطالية هي رفيق الدرب الذي اختارني ولم أختره، منذ ألحقني بها مكتب تنسيق الثانوية العامة، وهو كالقدر الذي يعرف أفضل منك ماذا يناسبك وماذا يزعجك، ويضعك في المكان الذي عليك أن تبرع فيه بأي ثمن. رغم هذا القهر والإجبار إلا أنني عندما واجهت قدري أحببته، فقد أحببت اللغة الإيطالية من أول درس. واللغة جرى اشتقاقها من اللغة اللاتينية، وقد نشأت في القرن الثالث عشر وعرفت في تلك الفترة، وهي ذات موسيقى جذابة بطبيعة تكوينها.

لقد عملت بالكثير من اللغات طيلة حياتي ما بين الإنجليزية والإيطالية والفرنسية، إلا أنني لا أحب الحديث أو القراءة سوى باللغة العربية، لم أتوقف أبدا عن الترجمة وحب اللغة العربية، وأن أنقل إليها كل ما اقرأ من لغات أخرى. على أن كل اللغات متساوية في مقاصدها، إما للتعبير عما بداخل المشاعر والوجدان أو لإيصال رسالة ما، وكل المعاني متوافره في كل اللغات، والعربية أغناها وأعمقها تراثا، وخصوصية اللغة الإيطالية هي أنها لغة للفن والإبداع، ومن المهم نقلها لإضافة الجديد للقراء العرب والأجانب على حد السواء.

أحب ترجمة الشعر، وقمت بترجمة 3 دواوين شعرية من اللغة الإيطالية وبدأت مسيرتي في عالم الترجمة بالمسرح، ولكن اهتمامي كان منصبا على التجارب الفكرية، ونقلت كتبا في القانون والتاريخ والأديان. لكن ترجمة الأدب هي أمتع الترجمات، وأسلسها لأنك تمارسها بمتعة ذهنية ووجدانية. والأدب لغة عالمية، وهو في

حد ذاته لغة واحدة تجمع البشر لكن بعلامات مختلفة وهو ما يعرف باسم علم السيموطيقا وهو علم حديث يتتبع العلامات التى هي في النهاية مختلفة، غير أن طريقة التعبير البشرى بها متشابهة جدا.

وأخيرا لابد أن أنقل للقارئ الكريم تصوري لمستقبل الترجمة في ظل التقدم التكنولوجي الرهيب، وخاصة تكنولوجيا اللغة. إن الترجمة الآلية التى تقدمها بعض التطبيقات ستصل دقتها إلى نسبة مائة في المائة في المستقبل بعد اتساع مدى استخدام الذكاء الصناعي، والنقص المعرفي الحالي في ثقافتنا يجعلنا نحتاج إلى الثقافات الأجنبية وتساعدنا الوسائل التقنية الحديثة على زيادة انتاجنا الترجمي عشرات المرات عما هو عليه اليوم.

تبقى الترجمة دائما هي الباعث الأول والأكبر على النهضة، وأتمنى أن تستمر كذلك.